

المنهج فى بناء الفلسفة الجديدة

أ.د. عزت قرنى

أولاً: لم الفلسفة الجديدة؟

لا توجد ثقافة، أياً ما كان شأن الجماعة التى أنتجتها، إلا وهى تحتوى ، صراحة أو ضمناً، على عدد أساسى من المبادئ والتوجهات العامة التى توجه إدراكها للعالم والإنسان وفهمها وحساسيتها وتفضيلاتها الأخلاقية والجمالية وغاياتها وقواعد سلوك أفرادها وسلوك الجماعة على السواء. هذه المبادئ والتوجهات العامة هى «الأصول»، ولا يمكن أن نتصور ثقافة ومجتمعاً إلا ويضم أفراداً أو مجموعات تهتم بتلك الأصول وتصوغها وتعلنها وتدافع عنها، وقد تعدل منها شيئاً أو أشياء بحسب سير العمل واختلاف الزمان. «أهل الأصول، هؤلاء قد يتسمون، عبر التاريخ منذ أقدمه، بتسميات مختلفة بحسب المجتمعات والعصور، وقد يكونون من أهل السياسة أو من أهل الدين أو من أهل المعرفة. أو من أهل الفكر المستقل أو من أهل الإدارة العليا أحياناً كذلك، أو من غير هؤلاء وأولئك. وإذا كان المصريون القدماء قد رأوهم فى الكتاب والكهنة والوزراء، وكان اليونان قد انتهبوا إلى تسميتهم باسم «الفلاسفة»، وظهروا فى الحضارة الإسلامية على هيئة علماء أصول الدين، فإنهم جميعاً من أهل البحث فى الأصوليات، أى فى المبادئ والكليات والتأسيسات، وهو البحث الذى تسميه الحضارة الغربية اليوم، من بعد اليونان، «بالفلسفة»، ونفضل نحن أن نسميه باسم عربى واضح هو «مبحث الأصوليات العقلية»، وإن كنا، لأسباب عملية واضحة للعيان، مضطرون إلى استخدام كلمة «فلسفة»، وما يشق منها، على الأقل لبعض الوقت.

والسؤال الآن هو: فىم تقوم فلسفتنا، أو أصولياتنا العقلية، وهى الضرورية تماماً لتوجيه الفهم والحساسية والسلوك والحكم جميعاً؟ لقد توهم كثيرون، منذ أحمد لطفى السيد، أن لنا أن نستعير أفكار الغرب وأسلافه، وتوهم بعض آخر، وأخذ عدده فى

الازدياد منذ هزيمة عام ١٩٦٧م المخزية، أن أصولنا العقلية ما هي إلا قضايا الفقه وعلم الكلام القديمين، وأخذ في نيش موروث العاضى المعرفى وفى إعادة نشره على ورق أبيض مصقول بعد أن كان قائما فى صدور الرجال وفى الصفحات الصفراء. ولنكتف هنا بالقول إن كلا الفريقين مخطئ خطأ جوهرياً يقوم، فى كلتا الحالتين، على جهل بحقيقة سير التاريخ وتحول المجتمعات وخصائص الثقافات جميعا، حيث إن الفريق الأول لم يدرك أن الأخذ عن الغرب، من حيث الأفكار الموجهة لكل شئ أى المبادئ، أمر غير ممكن ثقافيا وإنسانيا إلا بثمن الخضوع التام له والرضى بالتبعية بإزمته. والواقع أنه لا يمكن مطلقاً نقل ثقافة من جماعة إلى أخرى على أن تظل الجماعة الثانية محتفظة بكيانها الذاتى واستقلالها: إن الثقافة لا تستزرع فى بيئة غير بيتها، فإما أن تكون ابناً لها أو أن تكون غريباً عنها، ولا توسط، وهو ما لا يمنع من نقل أدواتها ومنتجاتها حيث إن هذه إنما هى من «المحايدات»، كما أنها ليست من الأفكار والمبادئ والغايات. وأما الفريق الآخر، فإنه نسى عامل مر الزمن واختلاف الظروف وتوهم أن ما قاله أبو حنيفة أو واصل ابن عطاء هو ذو حياة إلى اليوم (ونلاحظ أننا نتحدث دائماً عن إنتاج البشر، أما القرآن والسنة الصحيحة المفسرة والمكملة له فإنهما يقعان خارج ذلك النطاق). إن الفريق الأول يصطدم بمنطق الثقافة، كما يصطدم الثانى بمنطق الزمان والثقافة معاً، لأن الثقافة الإسلامية التقليدية قد أكملت دورتها وماتت مع انهيار الإمبراطورية العثمانية (وأما قيام ثقافة دينية إسلامية جديدة، فهو أمر ممكن، ولكن على أساس النظر الجديد تماماً إلى أصول الدين المعبر عنها فى القرآن الحكيم، الذى هو، بحكم التعريف، خارج الزمان وخارج البشرية).

ما نتيجة كل المقدمات التى سبقت، والتى وضعت على هيئة الإيجاز الشديد؛ إنها أننا ثقافة جديدة، إذن نحن نحتاج إلى فلسفة أو أصوليات جديدة وخاصة بنا نحن، ونحن وحدنا القادرون على صنعها والمطالبون بذلك. المطلب إذن هو إنشاء فلسفة أو أصوليات عقلية جديدة من الألف إلى الياء. فكيف السبيل إلى ذلك الإنشاء، وكيف يتم بناء الكيان النظرى التأسىلى الضرورى لثقافتنا ضرورة الدماغ للجسم وضرورة الغدة النخامية لسائر أنشطة الجسد الحسى؟ هنا تظهر أمامنا مسألة المنهج

وعلى نحو مسيطر وملح معاً.

ثانياً: عن المنهج وجه عام

المنهج لغةً هو الطريق الواضح والطريقة، والمنهج هو خطوات تُسلك على ذلك السبيل. وهكذا، فإن المنهج طريقة منظمة مقصودة في التعامل مع أمر ما، وتتكون من خطوات على التوالي. ويمكن أن نقول، على التعميم، إن المنهج هو الطريقة المنظمة المطردة، وذلك أياً ما كان ميدان تطبيقها وفي البحوث النظرية، فإن المنهج قد يقال على طريقة تناول الموضوع المعين وخطوات البحث فيه، كما قد يقال على طريقة عرضه أمام الآخرين. ويشير الجانب الأول إلى عمليات التفكير وإلى الذات القائمة على البحث، بينما يشير الجانب الثاني إلى القضايا التي يتجسد فيها البحث وهو يعرض على الآخرين شفاهاً أو كتابةً، أي أنه يتصل بترتيب عرض المسألة وخطوات البحث ونتائجه على نحو منظم متصل، وهو ما يجعل ذلك العرض يكون كلاً متسقاً.

ومن الطبيعي أن تختلف المناهج بحسب الميادين وبحسب الموضوعات، ولهذا فإن هناك طريقة عامة في التناول الفلسفي للمسائل، وذلك من حيث هدف السعى إلى الوصول إلى مبادئ وأصول عامة كلية، بطريق التفكير العقلي النظري، ومع ضرورة تقديم البرهان أو الدليل أو الحجة أو المبرر، على الأقل، لكل ما يقترح ولكل انتقال من مقدمات إلى نتائج. وفي نفس الوقت، فإن كل فيلسوف أو أصولي تكون له طرائقه الخاصة في داخل ذلك الإطار المنهجي العام المشار إليه للتو، فيكون هناك منهج فلسفي تأسيلي عام ومنهج يختص به كل مقدم للاقتراح التأسيلي. كذلك، فإن لكل ميدان تأسيلي خصائصه الخاصة، فتظهر مناهج تأسيلية مخصوصة بكل ميدان تحديداً، كما هو الحال مثلاً في منهج تناول مسائل أصوليات الفن الذي لا بد أن يختلف عن منهج تناول طبيعة الذهن البشري أو تناول غايات الحياة ومبادئ السلوك، إلى غير ذلك. أخيراً، فإنه عند ظهور ظروف ثقافية أو أصولية خاصة، فلا بد من ظهور قواعد منهجية مخصوصة تقابل تلك الظروف، وهي التي منها ظرفنا نحن الحالي، الذي هو معاً ظرف إنشاء الثقافة الجديدة وإنشاء أصولياتنا العقلية الجديدة تماماً هي الأخرى. هذه، إذن، جوانب أربعة للمنهج الفلسفي التأسيلي: جانب عام

مشترك، وجانب لكل فيلسوف فردى وجانب لكل ميدان، وجانب للظروف الاستثنائية الخاصة، وسوف يتناول حديثنا هنا الجانب الأول العام، لأنه يحتاج إلى إيضاح واتفق ولأنه المؤسس لكل ما عداه، والجانب الرابع الأخير، لأننا ينبغي أن نتساءل عن منهج بناء فلسفتنا الجديدة في ظرف استثنائي، هو ظرف نبذ الأوهام ودفع طرائق البحث المستحيلة من أجل إنشاء الفلسفة الجديدة والثقافة الجديدة معاً.

ثالثاً: ما قبل المنهج

المنهج، في النهاية، طريقة وخطوات تستهدف تحقيق نتيجة معينة، ولكن له كذلك مصاحبات ذهنية تفكيرية ووجدانية ومشئية، كما أن السير على طريقه يستلزم تهيئات من أشكال مختلفة. عن هذه التهيئات اللازمة لبناء فلسفتنا الجديدة نتحدث في القسم الحالي، لتتحدث في القسم التالي عن تلك المصاحبات الذهنية المتنوعة، وهنا وهناك سيكون حديثنا أشبه بإثارة رؤوس الموضوعات وحسب، لتتفرغ بعد ذلك لمجابهة مسألة المنهج الفلسفي عموماً ثم خصوصاً على التالي:

ونقصد «بما قبل المنهج» عملية تهيئة الأرض للبحث الجديد الذي يراد له أن يكون مثمرأ قوياً، تماماً كما يهيئ الزارع أرضه بتقليبها وبإزالة العوائق منها بأنواعها وينزع الحشائش الضارة وما شابه. ولعل أوجب عناصر عملية التهيئة تلك هي ما نسميه «فضح الأوهام»، وهي عندنا: أوهام العالمية وواحدية الثقافة والحضارة والفلسفة والعلم وغيرها، وهو الذي يعنى الخضوع للغرب إلى الأبد، وأوهام إمكان بعث الماضي الثقافي الذي كان، وكأن الغزالي لا يزال يتحدث إلينا هو والبيروني والمتنبي وغيرهم. ثم هناك شكل آخر للتهيئة، لعله أن يكون الوجه الإيجابي لشكل فضح الأوهام ذلك ألا وهو إعادة تقييم الأوضاع وإعادة فهم الوقائع مع ما يستتبعه هذا من ترتيب جديد للأولويات، لقد انتشرت مفاهيم بين الناس، من مثل «الإحياء» و«النهضة» وغيرهما، والواجب إعادة النظر فيها جذرياً، بل وإعادة النظر في وضعنا الثقافي والحضاري والوطني والقومي كله، وهو ما يؤدي إلى رؤية جديدة للواقع وللواجبات: ذلك أن وضعنا إنما وضع من يقوم بخلق ثقافة جديدة تماماً، إنه بإزاء الغرب أو بإزاء الموروث الثقافي لنا، لأن الحضارة الغربية ليست فقط هي الآخر المطلق، بل ولأنه من غير الممكن بحسب منطق الثقافات أن تكون هي لنا، وإن أمكن

استعارة بعض أدواتها ونتائجها، هذا بالإضافة إلى ضرورة الإدراك الواضح أنها قد دخلت، فعلاً وحقاً، إلى دور التحلل والانحيار منذ أوائل القرن العشرين الميلادي على الأقل، ولأن موروثنا الثقافي الذي صنعه بشر من بلادنا قد أصبح من التاريخ ومن الماضي حسماً وحتماً، فليس فيه حياة في الحق، هذا وإن كان من الواجب درسه ومعرفة لأنه شيء كان يخلصنا، أما كل ما أنتجه الغرب وأسلافه فهو مما لا يخلصنا في شيء، وإنما هو يحدث أحياناً أن يهمننا، إلى درجة أو أخرى لعله أو لعله مغايرة..

رابعاً: مصاحبات المنهج التأصيلي (الفلسفي)

يحتاج بناء الفلسفة الجديدة، والتي لا بد أن تنتج عن حركة إبداع جوهري، إلى مصاحبات نفسية عزيزة، من أبرزها القدرة على المبادرة والمشيمة القوية الحاسمة والعزم الأكيد المتصل، ولن يتم ذلك البناء بدون بذل الجهد العظيم، وبعد أن يبدأ في ذلك العمل فلا بد من الاستمرار عليه، وسط صعوبات ومعوقات من أنواع شتى، وعلى مر سنين طويلة، وهو ما يعنى التسليح بروح النفس الطويل،. إن هذه المصاحبات الوجدانية لا تقل أهمية بحال عن تملك روح جديدة تتجه نحو خلق المبتكر وعن التوصل إلى امتلاك الأدوات المناسبة للبناء الصعب المنشود، فلا بد إذن من توافر روح التضحية، وهي شرط ضروري عندما يراد القيام بعظائم الأمور.

ويحتاج إبداع الفلسفة الجديدة إلى التحرر إلى أعظم درجة ممكنة من الموروثات الثقافية والمعرفية والتربوية وكذلك من القضايا المشهورة التي تظهر وكأن لها مكانة الحق النهائي. إن تلك الموروثات معوقات أكثر منها معينات، ومنها مثلاً ما يقال عن ضرورة الأخذ عن فلان أو فلان من فلاسفة الثقافات والشعوب الغربية، على نحو ما توهم أحمد لطفي السيد وصحبه، كما أن القضايا المشهورة التي تظهر على ألسنة الكثرة بغير ما تفكير أو يكاد، ومنها على سبيل المثال دعوى أن هدفنا إنما هو الجمع بين أصالة غير ممكنة ومعاصرة غير منطقية، تلك القضايا التي تدعو إلى الكسل، وبخاصة إذا كانت بغير أساس من التاريخ ومن دراسة منطلق الثقافات. من جهة أخرى، فلا بد من توافر الجرأة على إعلان الاستقلال المنهجي عن السلطات المهيمنة بأنواعها، لأن الشيء الفلسفي الأول هو الخضوع لرأى تفرره وتفرضه سلطة بشرية ما، وبغير ما فحص ولا تمحيص.

إن قصد الإبداع ضرورة مطلقة لكل إنشاء جديد، فلا تجديد إلا بالإبداع والابتكار، ولا إبداع إلا مع توافر قصد الإبداع، وهو غالباً ما ينتج عن شعور من الالتزام أو الواجب أو المسئولية أو الرسالة. وهذه القضية الإبداعية ينتج عنها بالضرورة تحول في الرؤية عند صاحب البناء الإبداعي الجديد تجعله يظهر مختلفاً عن الآخرين، وهو وضع غير مريح إجتماعياً للأكثرين، وعلى صاحب البناء الجديد أن يتحمل كل نتائجه، ولكنه سيصل، مع تلك القصدية الإبداعية، وعند توفر شروط أخرى ستشير إليها من بعد، إلى إدراك المجال الفلسفي والثقافي على نحو جديد تماماً تظهر معه أمام عينيه علاقات جديدة، ويؤدي هذا الإدراك إلى إعادة تركيب غير مسبوق لعناصر الموقف. ولكن شرط تحول الرؤية هو القدرة على براءة النظرة، ومساندها هو قوة الخيال، ومساعدتها هو الانتقاء والقدرة على التركيز على الأهم والمهم وترك الفرعي والجانبى من الأمور. أخيراً، وليس آخراً، فإن على باني الفلسفة الجديدة أن يأخذ بحبل سياسة النفس الطويل، لأن التأصيل القوي يتطلب بحثاً طويلاً وتأملاً متدياً ومحاولات وراء محاولات، كما أن جوانب التأسيس الفلسفي عديدة تعدد جوانب الوجود، فلا هيئة المقال الصغير بمسغفة في البناء التأصيلي الفلسفي، ولا الاكتفاء بالنظر في ميدان دون ميدان هو سبيل تكوين فلسفة وأصوليات شاملة قادرة على التأثير.

خامساً: المنهج الفلسفي عموماً

أشرنا من قبل إلى أن المنهج عموماً في أمور المعرفة والتفكير هو طريقة منظمة في البحث، ثم تتخذ تلك الطريقة أشكالاً محددة بحسب خصائص كل ميدان كبير على حدة، وهكذا يكون هناك منهج رياضي ومنهج للعلوم الطبيعية ولتلك الانسانية، وكذلك أيضاً منهج فلسفي.

ولعل من أول عناصر المنهج الفلسفي البدء من سؤال المبدأ والأصل، أو فنقل: من السؤال الأصولي، والذي يتخذ ثلاثة أشكال مترابطة تظهر على هيئة أدوات الاستفهام: ما؟ لماذا؟ لم؟ فيكون لدينا سؤال الطبيعة وسؤال العلة وسؤال الغاية، وكلها تتصل بما هو مبدأ وأصل. والتركيز على سؤال المبدأ والأصل يميز البحث الفلسفي التأصيلي، ويظهر على هيئة ما نسميه «بوضوح الوعي الأصولي»، ويوجد مقابل له

عند المشتغلين بعلم أصول الفقه عندما يتميزون بالحساسية التأصيلية والتفصيلية عن أقرانهم من المشتغلين بالفقه. والعنصر الثالث من عناصر المنهج الفلسفي هو استخدام البرهان، وذلك تفريعا على الاهتمام بالعلة، حيث إن الإتيان بالبرهان هو فرع من الإشارة إلى العلة. وفي هذا يختلف المنهج التأصيلي عن طريقة الشعر في الإحياء وعن طريقة السياسي في فرض اختياراته عن طريق استخدام وجه أو آخر للسلطة؛ إلى غير ذلك. ثم يضاف إلى هذا كله، رابعا، أن البحث التأصيلي الفلسفي إنما هو حركة متواصلة متبادلة ما بين الأصول والفروع ذهابا وإيابا، لأن النظر الفلسفي نظر شمولى إلى جوار كونه نظراً تأصيليا، حيث إن الفلسفة هي بحث في الأصول في إطار الكل الشامل، إما مطلقا وإما في هذا الميدان المخصوص أو ذاك (مثلاً الفن، الأخلاق، الحرية....). ويسمح لنا هذا بالتأكيد على أن للفلسفة استهدافا مزدوجا: فهي تستهدف الوصول إلى مبادئ في نفس الوقت الذى تستهدف فيه الإحاطة الشمولية بالكل، ولكنها إحاطة به من حيث أصوله ومبادئه ومن حيث خريطة علاقات تلك الأصول والمبادئ بالفروع والنتائج فى داخل الكل. ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى فرض مسبق ذى أهمية يقف من وراء الطريقة الفلسفية فى البحث، ألا وهو أن الجزئيات، والتي أشرنا للتو إلى شكل لها يتمثل فى الفروع والنتائج، ليست هى كل شئ ولا نهاية المطاف، سواء أكان ذلك فى ميدان الأشياء أو الأحداث أو القضايا، وإنما هى يقوم وراءها مبدأ ما، وهى لا تفهم إلا من حيث علاقتها به، حيث إنه ليس للجزئى من وجود مطلق.

ومن نافلة القول أن الخطوات التفصيلية للبحث الفلسفي تتحدد على أساس كل ميدان معين بل وكل موضوع معين، وأيضا على أساس اهتمامات كل أصولي وطريقته المختارة فى التناول. لذلك فما يهمنا هو الأمور العامة المشتركة فى البحث التأصيلي. وبالإضافة إلى ما ذكرنا منها، فإنه من المهم أن نشير إلى عدد من الاتجاهات تحدد روح البحث الفلسفي من حيث جوانب عديدة فيه. ومن ذلك أن الاهتمام بالأساسيات والأصول ينبغى أن يقترن به الاهتمام بالعلاقات الكبرى فى داخل الظواهر موضوع البحث، وأحيانا ما يكون المبدأ هو علاقة جوهرية، ومثال ذلك أن السلطة، هى علاقة أساسية وهى مبدأ أول فى البحث التأصيلي فى طبيعة

السياسة. كذلك، فإن توجيه النظر إلى الأصول والعلاقات لا يتم بغير النظر التجريدي، فيكون التجريد من أهم ملامح البحث الفلسفي، وهو مقترن بالضرورة بالنظر الشمولي الكلي، فلا إدراك لكل إلا بالتجريد، لأن النظر المباشر لا يكون إلا لجزئيات. وفي المقابل، فإن الحس الفلسفي الصحيح هو الذي لا يهمل شيئاً، بل هو يهتم بكل شيء، ولعل وراء هذا افتراضاً تأصيلياً ذا أهمية يقول إن كل شيء على علاقة بكل شيء. ولهذا، أيضاً، فإن الحساسية الفلسفية منتبهة دائماً إلى التنوع الشديد الذي في الوجود، لهذا وجب الاستيفاء بقدر الامكان في الإحصاء، لأن شمول الإحصاء جدير بالوصول إلى مبادئ وأصول أعمق وأشمل. إن النظر الفلسفي لهو حركة دائبة ما بين التعدد والوحدة. ومن اتجاهات البحث التأصيلي أيضاً يقظة الروح النقدية دوماً وحضور حس التشكك الجدير بكل ما هو إنساني، وهذا وذاك يسيران مع الحس بالنسبية يبدأ بيد. أما عن الاهتمام بالتدقيق في فحص الأسئلة والمفاهيم والاستدلالات، فإنه أمر مفهوم، هو مراعاة الموضوعية في البحث بقدر ما تسمح به الطاقة الإنسانية.

سادساً: المنهج في بناء الفلسفة الجديدة وعناصره الخاصة

حيث أننا نبتغي بناء أصوليات جديدة تماماً، أي أن نخلقها خلقاً وأن ننشئها إنشاءً، وذلك ليس على يد واحد بمفرده بل على أيدي أكبر عدد ممكن من القادرين على تقديم الرؤى التأصيلية الشمولية القوية، وذلك إن في نفس عصرنا هذا أو عبر جيلين أو ثلاثة مما يلي، يقدم كل ذلك، عبر الزمن وعبر تتالي التجارب الثقافية وعبر الظروف التي ستعبرها جماعتنا الثقافية، على هيئة بدائل مقترحة لتقف الثقافة والأمة، بعد الاختبار والتأمل، على النظام التأصيلي الذي ترضيه لنفسها لمدة أجيال أخرى، حتى تحين ظروف خاصة ويعاد النظر في كل شيء، فيتعدل شيء أو أشياء هنا أو هناك ويتبدل شيء بآخر، ويلقى بثالث في ظل الذاكرة، وقد يعود بديل كان قد هجر لوقت ما لكي يعدل بعد المراجعة فيظهر تحت ضوء جديد في ثوب وتقديم جديدين، نقول حيث إننا نبتغي خلق أصولياتنا نحن المبتكرة والتي تخصصنا حقاً وتعبر عنا نحن حقاً وتكون من انتاجنا حقاً، فإنه لا بد من وضع عناصر منهجية وإجرائية فريدة تناسب هذا الظرف الفريد، لكي تضاف إلى العناصر المنهجية للبحث التأصيلي ولكي تقودها وتوجهها باعتبارها الآمرة عليها ويمكن أنت تعدد أهم تلك العناصر على النحو

التالى، قبل أن نبين ما نقصده بكل منها بعد ذلك:

- ١- البدء من الصفر المنهجي معرفياً.
- ٢- البدء من الوجود مباشرة فحصاً وبحثاً.
- ٣- اعتبار الانطلاق من نقطة البدء المناسبة المفيدة.
- ٤- تحديد التراث المرجعي الذى تنطلق منه الأصوليات الجديدة.
- ٥- اعتبار لغة البحث التأصيلي والمصطلح.
- ٦- التنبيه إلى هيئة التعبير المناسبة.

أما مفهوم «الصفر المنهجي»، فإنه يقصد منه أن الفيلسوف الجديد سوف يحاول «معرفة» آراء أكبر عدد ممكن من المفكرين، إن فى ثقافتنا الماضية أو فى ثقافات الأمم الأخرى، الحية منها والميتة، ولكنه سوف يضع كل معرفته تلك، وهى على سبيل الإدراك الموضوعى لا أكثر، سوف يضعها «جانبا» وهو بسبيل إنتاج الأصوليات الجديدة، وذلك قصداً ويقدر ما تسمح به الطاقة الإنسانية، لأن ذلك «الوضع جانباً» هو الثمن الضرورى للخلق والإبداع. ونحسب أنه ليس فيما نتقدم به هنا من جديد حقاً من حيث المضمون، لأن كل من درس عمليات الإبداع جيداً وجد فى سلوك عظام المبدعين شيئاً منه، ويكفى أن ننظر إلى فنان تشكيلي، أو غيره، من المبدعين: فإنه لا بد أن يبدأ بالتدرب على نقل أساليب الآخرين وعلى تقليدها، وهو ما يقابل «المعرفة» التى تحدثنا عنها لآراء الآخرين ولآراء الثقافات الأخرى، ولكنه لن يصبح خالقاً لأسلوب فنى جديد هو نفسه إلا بثمن إلقاء كل ما تدرب عليه جانباً، لينطلق إلى استطلاع عالمه الجديد المبتكر.

ومن الظاهر أن المعارف التمهيدية المحصلة عن آراء الآخرين من الغير لا «تعدم»، وإنما هى أصبحت ينظر إليها نظرة الشئ الذى ليس لنا على الحقيقة. وهكذا، فإن «الصفر» المقصود ليس هو الصفر الحقيقى، فما من أحد بين كل البشر يبدأ، فى أى ميدان كان من الصفر المطلق، وإنما لا المقصود هو «الصفر المنهجي»، زى السلوك «وكأننى» لم أدرس شيئاً، و«كأن» ما درسته ليس من عوامل مجال نشاطى التأصيلي الخالق. وفى الحق، فإن هذه القاعدة الجوهرية لخلق الأصوليات الجديدة هى ضرورية كذلك لخلق شتى جوانب الثقافة الجديدة: وهكذا، فإن عالم أصول الدين

الجديد، مثلاً، وعالم الفقه، عليهما معرفة كل آراء القدماء، ولكن من أجل إنتاج علم كل منهما الجديد المناسب لثقافتنا الجديدة، فإن عليهما أن يضعا كل ما تعلماه، بقدر الإمكان، جانباً، وأن يبدأ من «الصفير المنهجي».

وأما مبدأ «الانطلاق من الوجود مباشرة»، فإنه المبدأ المكمل وتاماً لمفهوم «الصفير المنهجي»، إلى حد أن يكونا معاً وجهين لنفس الأمر، حيث الاتجاه نحو الوجود يشكل الوجه الإيجابي، بينما اعتبار الصفير المنهجي يشكل الوجه السلبي. ذلك أن الوقوف مع الصفير المنهجي وحده يجعلنا نطل على العدم، ولن يفيد هذا في العمل شيئاً، ولكن الحقيقة الكاملة هي أننا إذ نبدأ بفكر صاف لا يشغله مضمون معين من أي مصدر كان، فإننا نتعلق به إلى الوجود مباشرة، أي إلى الكائنات والأشياء والأحداث والعلاقات ذاتها، وهذا نفسه هو ما فعله عظام المفكرين في حضاراتنا السابقة وعند حضارات الأغيار: إن إمحّتب وأبا حنيفة (وهو القائل: «هم رجال ونحن رجال») وسقراط وديكارت، استخدموا ضمناً قاعدة الصفير المنهجي، واتجهوا إلى الوجود مباشرة وكونوا عنه تصوراتهم. واستكمالاً للمثالين اللذين ضريرناهما منذ قليل، وهو علم أصول الدين وعلم الفقه الجديدين، فإن «الوجود» الذي سيتجه إليه خالقهما منا إنما هو النص القرآني والسنة الصحيحة الثابتة لكي يستخرجوا منهما التصورات الجديدة المناسبة للثقافة الجديدة، وكذلك في سائر الميادين، من علم الفلك وفن العمارة إلى صناعة الملابس وإنتاج لعب الأطفال. إن الثقافة كل متكامل، وروح الخلق والإبداع ينبغي أن تخترق سائر المجالات لتنتج الثقافة الجديدة المبدعة.

وأما عن نقطة البدء المناسبة المفيدة من أجل إنتاج الأصوليات الجديدة، فإننا نعتقد أن الأنسب والأفيد هو أن يبدأ الاقتراح التأصيلي بتقديم «رؤية جوهرية» تقف عند الخطوط الكبرى للموضوعات المحورية وتترك التفاصيل مؤقتاً، لحين ظهور مشاركة جديدة من جانب هذا أو ذاك، أو من قبل نفس المفكر الأصولي في وقت لاحق، ولكنها تكون مع ذلك شاملة وجامعة لكليات الموضوعات.

وأما عن التساؤل حول «التراث المرجعي» الذي تنطلق منه الأصوليات الجديدة، فإن الإجابة المتصلة به تظهر على نحو منطقي من تطبيق كل من قاعدة الصفير المنهجي ومبدأ الانطلاق من الوجود مباشرة: وهي أنه لا يوجد لنا تراث مرجعي

حقاً، وإنما هي معارف عن الجميع، عن القدماء من عندنا وعن الأغيار من شتى الحضارات والأمم، إنما تراثنا المرجعى هو الذى نحن ننبئ به بأنفسنا، واحداً إلى جوار واحد، وجيلاً بعد جيل، بحيث أن الوصف الصحيح لما نقل إلينا من أهل ثقافتنا السابقة، بل كل ثقافتنا السابقة، ليس أنه «تراث»، لأن التراث لا يكون إلا حياً فيما نرى، بل أنه محض «موروث»، ومكانه المعتاد هو المتحف وذاكرة الأيام. نعم، إننا لن، ولا نستطيع، أن نرتكن إلى أحد، فى الشرق أو فى الغرب، فى الحاضر أو فى الماضى، بل علينا أن نرتكن إلى ما نصنعه بأنفسنا صنع الخالقين. إن مرجعيتنا ليست آراء أحد أياً من كان، بل هي الوجود وتفكيرنا نحن واختياراتنا المتراكمات.

وفى إطار هذا الجهد العظيم الخلاق، فلا بد للإنشاء الجديد وللمنهج الجديد من مصطلح تأسىلى فلسفى جديد وجديد تماماً، فلن ينفعنا كثيراً معظم الحدود التى نجدها عند هذا أو ذاك، كما أننا نحتاج إلى كلمات جديدة بمعان جديدة تناسب أوضاعنا المختلفة. ولهذا، فإن نحت المصطلح الجديد وتقديم حدود وتعريفات جديدة للكلمات المهمة هما ضرورتان لازمتان من أجل استواء فلسفتنا الجديدة على طريق الخلق والثراء والفاعلية والتأثير جميعاً.

أخيراً، فإن هناك إجراء آخر يضاف إلى الإجراء السابق للقر، ألا وهو استخدام وسيلة الكتاب المطول فى عرض الأصوليات الجديدة المبتكرة، لأن شكل المقالة الصغيرة، بالمعنى الذى تستخدم به فى أيامنا هذه كلمة «مقالة»، لا يمكن أن يسمح بالنشاط التأسىلى على الوجه الصحيح وباستيفاء كل موضوع حقه الحقيقى.

سابعاً: كلمات ختامية

القضايا النظرية التى عرضنا لها تجد تطبيقات إجرائية لها فى كتب صاحب هذه الكلمات التى ظهرت حديثاً تحت عنوان عام مشترك هو: «بناء الفلسفة الجديدة»، وهى «تأسيس الحرية، وطبيعة الحرية، والذات ونظرية الفعل»، كما أن كتابيه الأسبقتين «الفلسفة المصرية. شروط التأسيس، ومستقبل الفلسفة فى مصر» يفتلان فى بعض المفاهيم والمبادئ الأساسية التى عرضت لها بكل إيجاز الصفحات السابقة، فىمكن، إذن، لتباحث عن التطبيقات الفعلية وعن التفصيل العودة إلى بعض هذه الكتب بحسب الغرض المبتغى.

ونختم هذا العرض بالتأكيد على بعض الأمور. أولاً، فإن صنع فلسفتنا الجديدة لا يمكن أن يكون من شأن فرد واحد ولا هو في مقدور فرد واحد، بل هو شأن كل القدرات الفكرية الخالقة، وكل في ميدانه، تماماً كما أن خلق ثقافتنا الجديدة ليس من شأن بلد معين، بل هو من شأن كل البلاد التي تتكلم العربية، لأن محور الثقافة الجديدة شكلياً هو أنها بلغة الضاد، وسوف تؤدي الثقافة الجديدة إلى ظهور أمتنا الجديدة على أسس جديدة وبعيداً عن الصيحات العنصرية الناتجة عن أقاويل أسطورية أطلقها بعض الهواة ومن منطلق مصالحهم الضيقة. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، بل قل المتسابقون إلى خير الثقافة الجديدة وأمتها الجديدة وحصانتها وقوتها وازدهارهما. وفي هذا الإطار المنهجي والوجداني معاً، فإن على كل منا أن يقول كلمته على أقوى وجه وأكثره إقناعاً، ولكن ليس لأحد أن يفرض رؤيته على الآخرين. نحن جميعاً أصحاب اقتراح، والشعوب والأمة الجديدة هي صاحبة الاختيار. وهكذا، فإن في المجال متسع للجميع، تماماً كما أنه من غير المسموح به فرض رأى أو احتكار مكانة.

ثانياً، فإن المفكر الأصولي لا يفكر لنفسه ولا لحسابه. صحيح أنه يفكر باسمه، ولكنه يفعل ذلك باعتباره ممثلاً للجماعة الوطنية وللثقافة الجديدة وللأمة الجديدة، فالأدق أن يقال إنه لا يفكر باسمه الفردي، بل من حيث أنه ذو صفة، وهي صفة الممثل للجماعة والثقافة. إنه يفكر بصفته لا بشخصه.

ثالثاً، إن المقترح الجديد، في أي ميدان كان من ميادين الثقافة، خاصة حينما يكون ثورياً حقاً ومختلفاً اختلافاً بيننا، يلقي المعوقات والتشويش وشيئا من إهمال مقصود، ولكن الصعوبات ينبغي أن تكون حافزاً على زيادة العزم لا أن تكون باعثاً على التخاذل. إن المفكر المجدد ذو عزيمة بقدر ما أنه ذو تواضع حقيقي لأنه يدري معنى المساواة البشرية ونتائجها. لكل هذا، فإنه يدري أن محاولات التعقيم على الخلق الفلسفي التأسيلي الجديد حقاً قصيرة العمر وسرعان ما تفسح بواعثها، وسرعان ما تدرك الجماعة الثقافية أين خبزها وماؤها الحقيقيان.

عزت قرني